

منهج التجديد في التفسير والدراسات القرآنية بين الاستئناف والتأسيس

The renewal approach in interpretation and Quranic studies between appeal and establishment

مراد برباش¹، ابراهيم بلختر²

¹مخبر المرجعيات الفلسفية والفنية للتفكير البلاغي والنقدي في الجزائر جامعة تلمسان

berbach.mourad@univ-tlemcen

²مخبر المرجعيات الفلسفية والفنية للتفكير البلاغي والنقدي في الجزائر جامعة تلمسان

belkhatir.ibrahim@univ-tlemcen

تاريخ الاستلام: 2025/02/24 تاريخ القبول: 2025/06/15 تاريخ النشر: 2025/09/01

ملخص:

ظهرت اتجاهات كثيرة في علم التفسير بعد تعرضه لعملية التجديد، غير أنه لا يخلو من التكرار والتقليد، وقد تناولنا في هذا البحث "منهج التجديد في التفسير والدراسات القرآنية بين الاستئناف والتأسيس"، وحاولنا دراسة منهج التجديد في هذا الحقل المعرفي بين الاستئناف والتأسيس من حيث واقعه وآفاقه. وخلصنا فيه إلى أن المرفوض من الابداع والاضافة هو الاستنساخ الأصم، لأنه يخالف القواعد المنهجية للتعميم، وأما الذي يتلائم مع خصوصية القرآن فهذا الذي يسير وفق قواعد منهجية صحيحة، ويوافق الشرع، وتوجد امكانية تأسيس علوم جديدة ترتبط بالنص القرآني ولها علاقة بالتفسير على غرار التفسير الموضوعي، كما يمكن الاستفادة من مناهج العلوم الحديثة كالأحصاء والاستمولوجيا والميتودولوجيا في تطوير الدراسات القرآنية، مع وجوب النظر الفاحص في التراث لاقتباس الأفكار والمناهج والطرق الصحيحة للفهم عن الله كمرحلة أولى، ولا يمكن أن نعتمد على عملية التأسيس فقط، ولا على الاستئناف وحده، بل لا بد من سيرهما جنباً إلى جنب في تجديد التفسير والدراسات القرآنية. كلمات مفتاحية: المنهج، التجديد، التفسير، الدراسات القرآنية، الاستئناف، التأسيس.

Abstract:

In the realm of Quranic studies and interpretation, the push for renewal has sparked numerous trends, though not without repetition and imitation. This research, "The Method of Renewal in Interpretation and Quranic Studies: Between Continuation and Foundation," explores the balance between building upon existing knowledge and establishing new frameworks. We argue that blind replication lacks creativity and violates methodological principles, whereas approaches aligned with the Quran's uniqueness, guided by sound methodology and religious compatibility, hold promise. New disciplines tied to the Quranic text, like thematic interpretation, can emerge. Modern methodologies—statistics, epistemology, and methodology—can enrich Quranic studies, provided we critically engage

with tradition to extract sound ideas and methods. Renewal cannot rely solely on foundation or continuation; both must advance hand in hand to revitalize interpretation and Quranic scholarship.

Keywords: Methodology, Renewal, Interpretation, Quranic Studies, Continuation, Foundation.

*المؤلف المرسل: مراد برياش

1. مقدمة

إذا كان الاجتهاد يترتبط ارتباطاً وثيقاً بالنوازل ومستجدات الزمان والمكان، فإن التجديد له علاقة بموت العلوم وحياتها، ومرضاها وصحتها، وضعفها وقوتها... بمعنى أننا نتحدث عن التجديد حينما تفقد العلوم دورها وفعاليتها، وتخطئ طريقها في تحقيق أهدافها وغاياتها، وتحرم ثمارها وفوائدها، وعلم التفسير بقي يعاني التقليد والجمود، وخلا من الإضافة والإبداع إلا ما قلّ منه، مما أدى إلى ركوده وفقدان الفعالية في الميادين الانسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية... واستمر ذلك ردحا طويلا من الزمن؛ حتى رفعت لوائه مدرسة المنار وغيرها من المجددين في العصر الحديث، فدعت إلى إعادة النظر في طريقته، وتجديد منهج الفهم عن الله من خلال كتابه العزيز، ولا يزال الحديث عن التجديد في التفسير محل اهتمام العلماء والباحثين إلى اليوم؛ يقعدون ويؤصلون، ويتبعون طرقه وأدواته ووسائله، ويحددون أسبابه ونتائجه، ومنطلقاته وغاياته، ومبرراته وجوانبه...

و يجب التركيز في البحوث والدراسات على قضية المنهج، ذلك أن أساس العلوم مناهجها، وهي محك قوتها وتطورها، وشرط استمرارها وهيمنتها، وينبغي التفريق بين "منهج التجديد في التفسير" والذي يعنى بطريقته وخطواته ومراحله وأساليبه وأدواته ومبرراته وجوانبه ومظاهره... وأما "تجديد منهج التفسير" فهو يعنى بالأصول والقواعد والاتجاهات والآليات والكليات... وكلاهما لا يقل أهمية في عملية التجديد عن الآخر، إذ الأول يرسم الخطة، وينظم العملية، ويحدد الأولويات... وأما الثاني فيجعلنا نتوغل أكثر في مضمون المنهج ومكوناته وأجزائه وتفاصيله، ما يمكننا من هزّ المناهج الأولية هذا عنيفا وغربلتها غربلة دقيقة، قد تفضي إلى ظهور اتجاهات وعلوم جديدة تكون أكثر نفعا من سابقتها في حل مشكلات العصر، وقد تبث الحياة في بعض جوانب العلوم السابقة لتلائم العصر وتجيب عن أسئلته لأن لكل عصر أسئلته وموضوعاته ومشكلاته.

وقد أنتج المسلمون الأوائل علوما نافعة، ميزتهم عن غيرهم من الأمم، وهي شاهدة على نضجهم العقلي، ونبوغهم المعرفي، ودالة على قدرتهم على انتاج المعارف وابتكار المناهج، وما كان لهذه العلوم أن تنمو وتزدهر وتكتمل لولا ارتباطها الوثيق بالمنهج العلمي المعرفي الذي يعتبر الدعامة الأساسية في انتاجها واستمراريتها وتجديدها، بل وحتى النهضة الأوروبية لم تقم إلا حين اهتمت في عصر التنوير بالمنهج العلمي وقفزت على المقدمات الصورية لأرسو التي كانت تعتبرها أساس الوصول إلى الحقيقة والمعرفة كما يرى أصحاب التجديد في الفلسفة.

وبين تحيين منهج التفسير ليوائم المستجدات ويواكب التطورات، وهي العملية التي يمكن أن نطلق عليها " الاستئناف " لأنها تركز على التراث التفسيري وتبني عليه، وتقبل كل أفكار علمية جديدة من الداخل والخارج إذا كانت تتلائم مع أصولها ومبادئها وثوابتها، وإيجاد مناهج جديدة لم تكن فيما سلف، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه " عملية التأسيس "، وكلاهما من العمليات الإسلامية المأصولة ، ومن مخرجاتها العلمية والمعرفية، ينادي بعضهم بعملية الاستنساخ، ويقفزون على الخصوصية والحدود العلمية لكل تخصص، وسنسلط الضوء في هذا المقال على عملية الاستئناف، واقعها، وحقيقتها، وما ينقصها ليكتمل التجديد في ضوءها، كما سنعرض لإمكانية التأسيس وعوامل نجاحه، ومساحته، وعلاقته بالعلوم المعاصرة كعلم الميتودولوجيا والابستمولوجيا... كما سنبحث في القراءة الاستنساخية لدى الحدائين لنحاول رسم الحدود بينها وبين عمليتي الاستئناف والتأسيس اللتان يمكن أن تكونا منسجمتان إلى حد ما، بخلاف القراءة الأولى التي تختلف اختلافا جذريا مع الأصول والثوابت، ما يجعلنا نتساءل عن عملية الاستنساخ ما إذا كانت عملية علمية موضوعية تخضع لمنهج علمي محكم؟ وما هي جوانب الضعف في عملية الاستئناف؟ وما مدى إمكانية تأسيس علوم ومناهج جديدة لفهم النص القرآني؟

2. التجديد في التفسير والدراسات القرآنية بين الإدعاء والحقيقة

قرر العلماء قاعدة مهمة في المنهج العلمي لقبول آراء الرجال فقالوا "إن كنت ناقلًا فالصحة وإن كنت مدعيًا فالدليل" وقد اعتنى ابن تيمية بهذه القاعدة فكان يقول " العلم إما نقل مصدق عن معصوم وإما قول عليه دليل معلوم " (الحمري، 2019، صفحة 25)، وقد وجدنا كثيرا ممن تصدى للتأليف في التفسير، رام التجديد وجعله مقصدا وصرح بذلك في مقدمته، ولكن عند تتبع واستقراء مادته التفسيرية نجدها عالية على غيرها، بل إن أغلب التفاسير مستمد من تفسير ابن جرير الطبري فهو أساسها وعمدتها، مما يدل أن جلّ هذه المدونات لم تخرج عن النسق العام لمدونات التراث، ومساحة التجديد فيها ضيقة، وقد حاول كثير من العلماء جاهدين تقديم الإضافة في بعض الجوانب، وذلك ما أنتج اتجاهات مختلفة كالتفسير الإصلاحي، والاجتماعي، والهادي، والبياني، والعلمي، والموضوعي.... غير أن هذا الجهد الذي رام تغيير واقع المسلمين إعادة فهم القرآن فهما صحيحا يراعي تحديات العصر، وينهض بالأمة، لم يؤت أكله ولا تزال الأمة على حالها متخلفة في جميع المجالات تخلفا مستمرا، ما يدعوا جمهور العلماء والباحثين لبذل مزيد من الجهود حتى بلوغ الأهداف المرجوة.

وعليه يجب تتبع مسار التجديد في التفسير بصفة دائمة لإجل التقييم والتقويم، ومن هنا تظهر أهمية الدراسات المسحية والبيبلوغرافية لجمع المعلومات ثم القيام بتحليل، ونقد، وتصنيف المعطيات بشكل علمي موضوعي بعيدا عن الزيادات والمبالغات.

3. التجديد في التفسير والدراسات القرآنية بين الفعل وردّ الفعل

إن السمة البارزة لأغلب الدراسات القرآنية أنها جاءت كرد فعل على الدراسات الإستشراقية والعلمانية والتغريبية والحدائية العربية...وقد حاولت بكل الطرق الرد والإقناع حتى بالمنهج العاطفي الذي ينبعث من الغيرة على الدين، والمعول عليه في الرد إنما هو الرد العلمي، والاتجاه إلى بناء مناهج علمية خاصة تسارع إلى تجديد نفسها لتعيد الاعتبار للعلوم الإسلامية ومناهجها في حقل المعرفة ضمن السياق العالمي.

والملاحظ في الدراسات القرآنية أنها تنوعت وكثرت مؤلفاتها وأبحاثها، ولكن يبدو أنها لا تزال تعاني من آفة التكرار والتقليد والسطحية ولا تتناول أسئلة علمية موضوعية، فهي في نظر الباحثين الجادين الذين لديهم إطلاع واسع بمخرجاتها، مقبولة من حيث الكم، وأما من ناحية الكيف فهي دون المستوى في الوقت الراهن، وتحتاج إلى تعميق البحث واتباع أسس منهجية صارمة وأهمها الأصالة والجدة، وقد عرفت قفزات من حيث الشكل والمضمون بعد شيوع القراءات المعاصرة للقرآن، والشغب الذي تعرض له المتخصصون في العلوم الشرعية أدى إلى تطور نسبي في الهموم والأسئلة، وقد ظهرت اهتمامات جديدة في البحث وإن كان لها جذور سابقة ومنها: دراسة المفاهيم القرآنية، الدراسات في أصول التفسير وقواعده، قضايا التأويل، مناهج المفسرين، التفسير الموضوعي ...، ومن المهم التعامل مع مراكز البحث الغربية من غير توجس ومن دون النظرة التأميرية المسبقة، والرد بمنطق النقد العلمي لا بمنطق الدفاع وردّ الفعل والالتهام، وكل دراسة حول القرآن الكريم لا تستوعب التراكم التاريخي لتفسير القرآن والأطروحات الحديثة فيه، ومن ثم تبني عليها وتضيف، فلن تقدم أي جديد وستبقى هامشية عديمة الجدوى والأثر، فتطور النقد العلمي يمكننا من فهم أفضل للتراث التفسيري مع عدم الوقوف في نهايته بل لابد من تجاوزه والبناء عليه (حلي، 2021).

4. الطريقة الشائعة في دراسة مناهج المفسرين وإعادة بلورتها

إن التجديد في التفسير مبني على التجديد في المناهج، وهو ما يقتضي إعادة النظر في دراسة مناهج المفسرين ونقدها، فالطريقة الشائعة المنتشرة بين الباحثين عليها ملاحظات هامة، فهي لحد الآن وحسب بعض الدراسات لا تقدم إلا وصفا عاما لمنهج المفسر بمعنى أنها لا تقدم معطيات حقيقية عن التفسير والمفسر، وقد خلصت دراسة عبد الرحمان المشد إلى مكن الخلل فيها فحدده في ثلاث نقاط وهي:

- عدم الالتزام بمفهوم المنهج.

- تحكيم بناء نظري مشكل في فهم واقع الكتب التطبيقية.

- غياب المنهج الإحصائي (المشد، 2021).

وتتميز الدراسات التي تتناول مناهج المفسرين بشيء من السطحية، فهي تقوم بإحصاء الأدوات العلمية لدى المفسر فحسب، كتوظيفه للغة، والقراءات، والحديث النبوي... وهذه الخطوات صحيحة من الناحية المنهجية، ولكن يجب تعميق الدراسات وتدقيقها؛ بأن تستنبط قواعد الفهم والتأويل والتوجيه، وتحدد الضوابط والمقاصد المتحكمة في عملية التفسير لديه، مع بيان الأصل والفرع، والكلي والجزئي، والثابت والمتغير، والركن والشرط، وحالات التقديم والتأخير، وضوابط الإهمال عند التعارض (الأنصاري، 2013، صفحة 196).

وعليه يجب إضفاء الموضوعية والعلمية على دراسة مناهج المفسرين ما أمكن، ويجب التفكير في إدخال المنهج الكيفي على طريقة استخدامه في العلوم النفسية والاجتماعية والتربوية في التفسير ومناهجه، وإعادة النظر في مدى إمكانية ذلك وجدواه وفوائده على علم التفسير والدراسات القرآنية، فثملا لو أردنا أن نحكم على مفسر ما واعتماده على الإسرائيليات، يمكن أن نحصي عدد المواضع التي اعتمدها في تفسيره، وبقسمتها على المجموع الكلي، نتعرف على متوسط استعماله

لها، ونسبة ذلك، ليسهل فيما بعد مقارنته بغيره أو الحكم عليه، وهذا مثال يتبين من خلاله مدى إمكانية اعتماد المنهج الكيفي الذي يستخدم الأساليب الإحصائية في التفسير، وإذا كان كل باحث متيقن بأن نتائج البحوث المعتمدة على المنهج الكيفي والتي تحاول الإقتراب من المنهج الكمي، أكثر دقة وموضوعية من غيرها، فلماذا لا نحاول توجيه الدراسات هذا الاتجاه ما دامت لا تتعارض مع النص والشرعية وليس ثمة نهي ومحذور، فلا يمكن اعتبار المنهج الكيفي خاص بأمة دون أمة حتى نردّه ونتصادم معه، وصعوبة ذلك وتعسره ليس معناه استحالة بالكلية، وقد وجدنا محمد الغزالي يفرق في الحكم بين فلسفة العلم وآلاته، فيرى أن العلوم الإسلامية أو ما يسمى بأسلمة المعرفة التي يسعى بعض الباحثين ومراكز البحث في تحقيقها¹ يجب أن تكون مراعية للمبادئ والأخلاق الإسلامية في أهدافها وغاياتها، وأما تقنياتها وآلاتها ووسائلها فهي من قبيل الكسب البشري المشترك (الغزالي، صفحة 211).

كما يجب أن تتميز دراسة مناهج المفسرين في العصر الحديث بتتبع مظاهر ومواطن وجوانب التجديد، ودراسة نقاط التميز عن التفسير القديمة والمعاصرة، وتحديد إضافة كل مفسر لحقل التفسير وهكذا تنمو عملية التجديد وتتحدد معالمه وتعرف آثاره وفوائده وذلك حتى يكون له أثر في الواقع.

5. علمية التفسير والحاجة إلى التأسيس

قسم العلماء علوم الشريعة من حيث اكتمالها، وتحدد منهج بحثها إلى علوم نضجت واحترقت، وعلوم نضجت ولم تحترق، وعلوم لم تنضج ولم تحترق، وهذا التقسيم هو خلاصة تقييم العلماء لعلوم الشريعة ويلقى قبولا واتفاقا واسعا لدى النقاد والباحثين، والتفسير علم لم ينضج بعد، فمن ناحية أصوله وقواعده لا يزال الخلاف قائما حول تقررهما من عدمه، فهناك من يرى أنها تحتاج إلى بناء وتقرير (بنيحي، صفحة 5)، بمعنى أن هذا العلم لم يكتمل بعد رغم ما ألف فيه من مدونات وظهر فيه من اتجاهات، لكنه من حيث مبادئه المنهجية وقواعده الكلية حديث النشأة، ولهذا نجد في التفسير الغث والسمين، والصحيح والمتين والضعيف والسقيم، وقد صرح ابن عاشور بنفي علمية التفسير وأما اعتباره علما فمن باب التجاوز فقط فقال "وفي عد التفسير علما تسامح" (عاشور، 1984، صفحة 12) وسبب التشكيك في علميته مرجعه إلى سببين وجيهين: فأحدهما: أن التفسير يخلو من تفرد بنسق قاعدي مستقل خاص به فهو يحتكم في فهم النص القرآني إلى نفس معايير ومنهجية تفسير النص العربي من حديث وشعر ونثر...

وأما الآخر: فلأنه يقوم على بيان المعنى الذي هو من قبيل الجزئيات فليس بقضايا ومسائل كلية ليستحق وصف العلمية (سليمان، اليماني، و السيد، 2019، الصفحات 102-103).

¹ كالمعهد العالمي للفكر الإسلامي، مقره في أمريكا، يسعى في تقديم المنهج القرآني البديل عن سائر المناهج المعروفة، ويقوم بجهود معتبرة في بناء المنهج المعرفي الإسلامي وأسلمة المعرفة، ويشارك فيه أكبر الباحثين والعلماء كالشيخ محمد الغزالي ويوسف القرضاوي ومحمد عمارة، والدكتور عبد الحميد أبو سليمان، والدكتور عماد الدين خليل...

والحاجة إلى تجديد فهم القرآن وتفسيره قائمة وملحة، ومبرراته كثيرة وقد أجريت حوله بحوث ونشرت مقالات، ولعل أهم الحاجات والمبررات التي يمكن إضافتها في هذا المبحث هو عدم اكتمال ونضج علم التفسير في مراحل التاريخ مما سيعود على مستقبل التفسير بالفائدة، إذ سيكون الطريق أمام المجددين مفتوحاً على مصراعيه لتأسيس هذا العلم برؤية معاصرة، وذلك لأن الخروج عن مناهج محددة مكتملة يشكل صعوبة ويتطلب جهوداً أكبر، مما يتبين أن التجديد في التفسير والدراسات القرآنية أسهل وأطوع من غيره.

6. التجديد في أصول التفسير وقواعده وعلاقته بأصول الفقه

يعتبر علم أصول التفسير وقواعده من أهم العلوم المرتبطة بالتفسير، ولهذا نجد كثيراً من الباحثين في العالم الإسلامي ينادون بتجديدهما وإعادة تأصيلهما، فنمو هاذين العلمين نمو للتفسير، بهما يتحقق الفهم الصحيح لكلام الله تعالى، ويسلم المجتهد ومعه المجدد من الوقوع في الخطأ، وقبل الحديث عن تأسيس علوم و مناهج جديدة لفهم القرآن يجب خدمة هذه العلوم المنهجية المستمدة من التراث مع شيء من الابتكار والإبداع، ثم تأسيس علوم ومناهج جديدة تساهم في فهم القرآن وفق نظرة معاصرة، غير أن تجديد أصول التفسير وقواعده يسير بخطى ثقيلة مما فسح المجال أمام الباحثين لابتكار طرق ومناهج على غرار التفسير الموضوعي والدراسات المصطلحية اللغوية، والدراسات الفلسفية...

وقد خلصت دراسة محمد صالح محمد سليمان وآخرون إلى نتائج صادمة، وأهمها غياب مفهوم قواعد التفسير في كل المؤلفات حتى المعاصرة منها إلا ما ندر، كما بينت أن هذه المؤلفات التي تناولت قواعد التفسير وأصوله لا تشير إلى جزئيات القاعدة، ولا للحكم القاعدي الساري فيها، وتفتقد إلى أدلة على قاعدتها، وقلة الشواهد المؤكدة لها، ولا تتعرض لمناقشة مستثنياتها... (سليمان، اليماني، و السيد، 2019، صفحة 280)، وعلى هذا فإن الحاجة ضرورية لفتح باب الإبداع والإضافة الحقيقية لهذا الحقل المعرفي، وطرح الاستشكالات بطريقة مستمرة حتى نتمكن من الوصول إلى مناهج جديدة تساعد في فهم كتاب الله تعالى تنطلق من التراث وتوافق مقاصد الشريعة وتستجيب لتحديات العصر، وقد نبه الشيخ محمد الغزالي أنه يمكن الاستفادة من مناهج الأصوليين والفقهاء في استنباط الأحكام ولكن لا يمكن أن يكون بديلاً عن منهج قرآني خاص، فالأمة اليوم تحتاج إلى رؤية قرآنية شاملة تتسم بالموضوعية لا بالموضعية، وتبحث عن سنن الله في الآفاق والأنفس، وتسائر الواقع والظروف الحضارية التي يشهدها العالم المعاصر، وقد صرح بذلك قائلاً " لكل أفق من هذه الآفاق، صبغته، وله منابعه، وله هدفه الذي يسير إليه... ونقل المنهج الأصولي ليصبح منهجاً للتعامل مع النص القرآني في المجالات والمحاور كلها، غير دقيق، فلكل مجال آلات لفهمه" (الغزالي، صفحة 47).

7. التفسير الموضوعي وإمكانية التأسيس

ويبدو أن ابتكار أصول وقواعد وعلوم جديدة مستمدة من التراث تعين على قراءة القرآن بطريقة علمية ودقيقة أصبح ممكننا، ولا أدل على ذلك من ابتكار التفسير الموضوعي الذي له جذور تاريخية ولكنه عرف النور في عصرنا، وتحددت خطواته المنهجية بسرعة معتبرة، حتى أصبح قبلة الباحثين والمفسرين، وعليه المعول في الدراسات القرآنية

الحديثة، وتظهر أهميته في منهجه العلمي الخاص الذي يعتمد فيه على جمع الآيات التي تتناول موضوعا واحدا، ثم القيام بتحليلها واستخراج نظرية قرآنية في ذلك الموضوع لتكون أوسع وأشمل وأكثر عمقا ودقة، وقد خطى هذا العلم خطوات معتبرة؛ حيث تم تأصيله وتنظيره، وإنتاج مواد ومدوناته التطبيقية، ويعتبر عبد الستار فتح الله سعيد أن تصحيح مسار الدراسات القائمة يعتمد على التوجه نحو التفسير الموضوعي لأنه يقوم على الإستقراء الكلي للألفاظ والدلالات لتصبح حكما في تقرير القضايا، فإصلاح طريقة التفسير وإنضاجه متوقفة عليه، لأنه نمط علمي منضبط ومحدد يتم فيه استخلاص الحقائق مباشرة، وعدم الاستغراق في تفاصيل الفنون المختلفة، ويعمل على تحقيق مقاصد القرآن (سعيد، 1991، الصفحات 52-53).

8. تجديد مدرسة المنار واستئنافه

تعتبر مدرسة المنار أهم مدارس التجديد في التفسير على الإطلاق، وقد فتحت باب التجديد الذي أغلق طوال السنوات العجاف وقد تشكلت هذه المدرسة من ثلاثة أقطاب من أكبر المجددين في العصر الحديث، جمال الدين الأفغاني وهو الأب الروحي والمؤسس الأول، والإمام السيد محمد عبده مهندس المنهج الجديد، وواضع أسسه ومبادئه وخطواته، والسيد رشيد رضا الناطق الرسمي للمدرسة، والمترجم لأفكارها، والمتمم لمسار التجديد فيها، ما جعل البيومي يذكره من أعلام النهضة ويقدمه على أستاذه، لتضله في علوم الحديث والفقه والتشريع (البيومي، 1995، صفحة 248).

وقد جاء "تفسير المنار" كنموذج للتفسير الحديث الذي يخاطب أهل العصر بلغتهم وفكرهم، ويساير ما وصلوا إليه من علوم ومعارف، رسم خريطة الطريق أمام المفسرين في العصر الحديث ليخرجوا عن الطريقة الأولى التي تناقلها المفسرون عبر القرون، وقد أشاد البيومي بمميزات هذا التفسير فقال "وقد جاء هذا التفسير ليكون الحجة القاطعة على أن الإسلام دين الفطرة"، وقد كان محمد عبده جريئا على التقليد والجمود، صريحا في نقده للتفسير والمفسرين، ويرى بأن الله تعالى يوم القيامة لا يسألنا عن آراء الرجال ولكن سيسألنا عن كتابه الذي أنزله لإرشادنا وهدايتنا وعن سنة نبينا الذي بين لنا ما أنزل إلنا، قسّم الأستاذ الإمام التفسير إلى نوعين وهما: تفسير مبعد عن الله وكتابه، وهو المشحون بالمصطلحات الفنية، وهذا لا ينبغي أن يسعى تفسيرا، وتفسير يهدف إلى فهم المراد من القول، وحكمة التشريع في العقائد والأحكام، على الوجه الذي يجذب الأرواح، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة في الكلام، وهذا هو الغرض الذي رمى للوصول إليه من خلال قراءته للتفسير (رضا، 2002، صفحة 25).

ولو لم يكن لهذه المدرسة من فضل غير ما قامت به من تخليص التفسير من التوسع في المصطلحات الفنية، وتجنب تفصيل مهمات الغيب، ورد الإسرائيليات والأحاديث الضعيفة، وتسهيل الأسلوب ليوافق روح العصر، وتوجيه التفسير لإصلاح الفرد والمجتمع وتحقيق المقصد الأعلى للقرآن وهو الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة لكفها فخرا وشرفا في خدمة التفسير، ولاعتبر ذلك تجديدا حقيقيا وشفع لها فيما أخطأت ووقعت فيه من تجاوزات، كإعطاء الحرية الكاملة للعقل وتقديمه على النقل مما جعل الذهبي يقول "فقد أعطى الإمام لعقله الحرية الكاملة في تفسيره للقرآن الكريم... إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف في أفكاره، والغلو في آرائه" (الذهبي، صفحة 2، 417)، ويقتضي على من جاء بعدهم إكمال مسيرة التجديد، وتصحيح الفجوات العلمية والأخطاء المنهجية، وتعديل ما

يمكن تعديله، ثم استئناف السير بالتفسير إلى آفاق جديدة لا أن يعملوا على هدم هذه المسيرة وإيقافها لمجرد عدم موافقتهم في بعض الآراء والأفكار، مع ضرورة تعديل آرائها وأفكارها ونقدها نقداً إيجابياً.

9. التفسير الفلسفي والفكري ومحاولات الاستئناف والتأسيس

ظهر مجموعة من العلماء والباحثين المتميزين في الساحة الفكرية الإسلامية الحديثة والمعاصرة وهم أقرب إلى التأسيس منه إلى الاستئناف، تمكنوا من وضع بصمتهم في عملية التجديد المنشود وهو المنطلق من التراث العربي الإسلامي، والذي لا يحمل عداً للدراسات الشرعية بل يستمد منها أفكاره ويبني عليها إبداعه، كما كان أمين الخولي يقول لا يحق لأحد أن يتكلم في التجديد ما لم يقتل الماضي فهما واستيعابا، ومن بين هؤلاء الذين حملوا راية الاجتهاد في مختلف الجوانب العلمية كالآداب والتفسير والفلسفة والمناهج نجد: عبد الوهاب المسيري، طه عبد الرحمان، أبو يعرب المرزوقي، محمد إقبال، مالك بن نبي، طه جابر العلواني.... وغيرهم، اجتهدت هذه الطائفة من العلماء لتأسيس أنساق فكرية إسلامية أو عربية عصرية أصيلة ابتعدت فيه عن التقليد الأعمى للتراث وترديده، وحاولت نقده بموضوعية، ولم تتأثر بالأنساق الفكرية الغربية ومناهجها رغم أن أغلبهم تلقى تكويناً غربياً.

وهذه المشاريع وإن كانت فكرية حضارية فلسفية إلا أن لها علاقة وارتبطا وثيقا بالقرآن وفهمه وتفسيره فهي تنطلق منه وتعتمد عليه في الاستدلال، وتطبق عليه مناهجها وأدواتها، وأغلبها يحاول استخراج الرؤية القرآنية، وفلسفته ونظرياته الخاصة به؛ بمعنى أنها تبحث في قوانين الأنفس والآفاق التي يتضمنها كتاب الله تعالى، فمالك بن نبي يتكلم في "الظاهرة القرآنية" و غيرها من مؤلفاته عن قوانين تخلف وتقدم الحضارات وقد جعل المجتمع الإسلامي عينة لدراسته والقرآن الكريم مصدراً لأفكاره وآرائه، والمرزوقي في كتابه "الجلي في التفسير" يتكلم عن استراتيجية القرآن التوحيدية...

10. موقع التجديد في التفسير والدراسات القرآنية من العلوم الحديثة

إن تطوير العلوم و خروجها من الأزمات والمآزق مبني على علمين أساسيين، ظهر أحدهما في أواخر القرن العشرين وهو ما يسم بالابستمولوجيا « **Epistémologie** » أو " نظرية المعرفة"، والذي يقصد به النقد الشامل للعلوم ومناهجها ونتائجها من أجل تقييمها وتصويبها، وكذا علم المناهج « **Métodologie** » الذي ظهر قبل نظرية المعرفة والذي يعنى بالدراسة الوصفية لمختلف المناهج العلمية، والعلاقة بين العلمين كما ترى مليكة جابر في كون الأخير يقدم الدراسة الوصفية المستخدمة في تحصيل المعارف العلمية، ثم تتعدى الابستمولوجيا ذلك إلى الدراسة النقدية الرامية لاستخلاص المبادئ التي ينطوي عليها التفكير العلمي (عاشوري و لخنش، 2020، صفحة 215)، وإذا كانت أعنى النظريات العلمية وأكثرها دقة وموضوعية تتعرض للنقد والتمحيص والتجاوز أحيانا فلماذا تحافظ مناهج التفسير على قالها الأول منذ قرون من الزمن؟ ولماذا يجب أن تفهم نصوص القرآن بنفس الفهم الذي فهمه الأولون؟ ولست هنا أجازر الإساءة إلى النص ولا إلى من جدد في كل عصر من العصور فقد قاموا بواجبهم وجزاهم الله كل خير، وإنما أتساءل عن واجبنا نحن؟ وماذا قدمنا لخدمة هذا الكتاب العزيز الذي لا تنقضي عجائبه ولا يشبع منه العلماء؟.

هذا ويمكن الاستعانة ببعض خطوات وتقنيات هذين العلمين في عملي الوصف والنقد، وقد ذهب فريد الأنصاري إلى أنه يجب جمع المادة العلمية المرتبطة ببناء البحث العلمي لدى السلف واستقراءها في جميع المراحل التاريخية وجميع التخصصات الشرعية، ثم

تأتي مرحلة نقدها وتمحيصها، ثم نفتح الباب أمام الاستفادة الواعية المتبصرة من المناهج الغربية الوصفية أو ما يسمى بـ "الميتودولوجيا" أو جانبه النقدي المسمى بـ "الابستيمولوجيا" (الأنصاري، 2013، صفحة 191).

11. القراءة الحداثية للنص القرآني وموقعها في الاستئناف والتأسيس

11.1 هل هو تجديد (استئناف) أم جديد (تأسيس) أم استنساخ؟

لا يمكن أن نعتبر القرىءة الحداثية تجديد ولا إتيان بجديد، لأن التجديد ينطلق من القديم فيصلحه ويبني عليه، ولا يمكن أن يكون جديداً لأن الذي ينادون به ليس من عند أنفسهم ولا من بنات أفكارهم، خصوصاً فيما يتعلق بالمنهج والأدوات، وليست نظريات بحثوا عنها وأصلوها بقدرما هي موجودة في قوالب جاهزة للاستهلاك في مخابر غربية، فأرادوا تطبيقها على الشرق معتقدين أن نجاحها في الغرب يؤدي بالضرورة إلى نجاحها في أي مكان، وليس لهم من جهد إلا عملية النقل والتحويل والتطبيق الذي لا يمكن أن ننقص من قيمته، ولكن الاستنساخ الأعمى لا يجدي نفعا ولن يؤتي ثماره، ومثلهم كمثّل من يضع ثمرة على شجرة ويدعي أنها من ثمارها، ولكنه بعد فترة قصيرة ستذبل وتفسد، بل إن التعميم العلمي يخضع إلى شروط معينة ودقيقة يصعب توفيرها في العلوم الانسانية والاجتماعية، والتي من بينها أن تحمل العينة نفس خصائص المجتمع، ونحن نعلم الفرق الكبير بين المجتمع الغربي والعربي الاسلامي من حيث العقائد، وأنماط التفكير، والثقافة، والسلوك الاجتماعي...، والاستنساخ لا يمت إلى المنهج العلمي بصلة، وهؤلاء الذين ينادون به ليسوا من العلمية في شيء، وليس منهجهم علمي، بالرغم من كل إدعاء، فمن غير العلمي أن نقرأ ونفهم الأنماط الحضارية المختلفة، من خلال منظور التجربة الأوروبية، وعبر نظرة الغرب إلى نفسه وإلى العالم (الأنصاري، 2013، صفحة 57). وهذا التيار يتميز بتبعيته للغرب وهيمنة الأخير عليه، وعدم استقلالية المنهج، ومحاولة استنساخ التجربة الغربية بإعادة الاعتبار للتفكير العقلي والعلمي على حساب التفكير الديني الكنسي، وهم يقومون بذلك دون مراعات الظروف الجديدة، والمعطيات المختلفة، وأهم ما يجب مراعاته هو الفرق بين القرآن الكريم والكتب المقدسة الأخرى من حيث حثه على العلم والبحث والنقد والتفكير وطرح السؤال الموصل إلى المعرفة... فلم يكن يوما عائقا ومثبطا بل هو حافز ومشجع. وهذا الفكر كما له علاقة وثيقة بالمناهج الغربية المعاصرة له جذور استشراقية، فهو يقوم بإعادة تصنيع تقنيات وأفكار المستشرقين، وقد أثبت إبراهيم السكران في كتابه "التأويل الحداثي للتراث - التقنيات والاستمداد"، استمداد الحداثيون العرب لتقنياتي التوفيد¹ والتأسيس² من الفكر الاستشراقي (السكران، 2022، الصفحات 251-286)، وأغلب الدراسات الحداثية قامت على هاتين العلتين اللتين كانتا أساس دعاوى المستشرقين.

¹ - تقنية التوفيد وتعني الاقتباس من أهل الكتاب والأمم السابقة.

² - تقنية التأسيس وتعني افتعال خلفيات وأغراض سياسية للعلوم الإسلامية.

و عملية التجديد المكتسبة بثوب الاستنساخ والقص واللصق مرفوضة لاعتبارات علمية وهي غير مجدية ومضیعة للوقت والجهد، وأما عمليتي الاستئناف والتأسيس فيجب أن ترتكز على دعامتين أساسيتين هما:

- 1- استيعاب التراث ومناهجه، وهو ماذهب إليه أمين الخولي وقره عليه أغلب الباحثين ويؤيده المنهج العلمي لأن المعرفة بنائية، وهو ما لم يتوفر في الحدائين.
- 2- استيعاب المناهج الغربية الكلاسيكية والمعاصرة، ولم نجد أحدا من الحدائين أثبت كفاءته في المساهمة في بناء المناهج الغربية، أو اشتهر على المستوى العالمي بإسهاماته المعرفية، وإنما رأينا أن الإحتفاء بهم جاء فقط حينما جعلوا تراث المسلمين ميدانا لنقدهم ودراساتهم.

2.11 التناقض المنهجي للتيار الحدائي في عملية التأسيس

جهود الحدائيون بشرية كغيرها تصيب وتخطئ، والنوايا لا يعلمها إلا الله تعالى، ولكنهم وقعوا في أخطاء منهجية ليس هذا محل بيانها وتفصيلها ولكن نضرب لذلك مثالين حتى يتبين صحة هذه الدعوى .

أ. مداهنة أركون وأسباب غير علمية

إن من أهم صفات الباحث الموضوعي أن يتصدى لقول الحقيقة العلمية مهما كلفه، وهو ما لا يفعله الحدائيون، فهم يمارسون الخداع وعدم الوضوح، ويستخدمون أساليب ملتوية لتبليغ وجهة نظرهم وذلك لتجنب المصادمة مع شعوبهم التي يرون أنها لا تزال غير مؤهلة لفهم هذه الأفكار الجديدة، وقد صرح بذلك أركون نفسه قائلا "وإذا كتبت شيئا عن هذه الموضوعات فلا بد أن تراقب نفسك، لذلك لا يمكن أن تقول كل ما يجب أن يقال، ولا يمكن أن تطرح بعض المسائل بسبب الرقابة.... أنا كأستاذ وباحث أود أن أطرح بعض الأسئلة، لكني لا أستطيع أن أفعل ذلك كما يقتضي العلم، لأنني أريد أن أبقى مع اتصال مع العرب... لأنني أفهم أن الباحث لا يحق له أن يخرج نفوس الذين لا يزالون غير مستعدين ليفهموا ويدركوا بعض المشاكل التي تطرح" (مفتاح، 2002، صفحة 75)، ويبدو أن هناك أسباب ذاتية سياسية تكمن خلف عدم الإجابات الصريحة، وهذه الأساليب الملتوية ليست لها علاقة بالأمانة العلمية والموضوعية، وهو بهذه الشخصية بعيد كل البعد عن خليات البحث العلمي التي تقتضي من صاحبها النزاهة والحياد، وعرض النتائج ومقدماتها دون ما تدخل أو تحريف" (السكران، 2022، صفحة 76).

ب. التناقض المنهجي لدى الجابري

وممن وقع في التناقض المنهجي الجابري فقد بنى كتابه "نحن والتراث" على دعوى يفترض فيها "لا تقويم صحيح إلا بالنظرة الشمولية" وبنى كتابيه "تكوين العقل العربي" و"بنية العقل العربي" على دعوى يفترض فيها "لا تقويم أصيل إلا بالبحث في الآليات" غير أنه تناقض عند العمل بهما فانتقل من النظرة الشمولية إلى النظرة التجزيئية، ومن البحث في الآليات إلى البحث في الخطاب التراثي بصدد هذه الآليات، وبعد افتراضه وجوب التعامل مع العلوم الإسلامية كأنها علم

واحد مترابط وسبب ذلك أن علماء التراث كانوا موسوعيين، إلا أنه لم يلبث أن قسم التراث إلى ثلاث دوائر سماها بالأنظمة المعرفية، وهي: "البرهان" و"البيان" و"العرفان" وهي دوائر متباينة من حث آلياتها، وليس بينها رابط إلا المصارعة أو المصالحة، وهي متفاوتة من حيث علميتها فأعلاها البرهان ثم البيان ثم العرفان، وأما دعوى الاشتغال بالبحث في الآليات المنتجة للفكر، فقد قام بتقويم هذه الآليات في نصوص القدامي، مثل الشافعي بالنسبة للآليات الفقهية والأصولية، والجرجاني والسكاكي بالنسبة للآليات البلاغية، والفراهيدي للآليات الشعرية، والقشيري للآليات العرفانية، وهناك فرق بين الإشتغال بالآلية وبين الإشتغال بالخطاب الذي دار بشأن هذه الآلية... (الرحمان، الصفحات 32-33).

12. خاتمة

تطرقنا فيما سبق إلى مفهوم التجديد في التفسير باعتباره استئناف ومواصلة وإحياء لما اندرس من العمل به، وباعتباره تأسيساً لعلوم جديدة لها علاقة بالتفسير، وتفتح مداخل لم تعدها الساحة العلمية التفسيرية، ومع أن الاستئناف يعتبر تجديداً، والتأسيس يعني الجديد بلا مثال سابق، إلا أنهما لا يتعارضان ولا يتصارعان بل يعملان في انسجام وتوافق لتحقيق الفهم الصحيح الذي يناسب العصر ويكون فعالاً في حياة الناس، فالجديد الذي لا يتعارض مع الأصول والثوابت ويوافق الشروط والضوابط لا أحد يردده ويرفضه، خصوصاً إذا كان من قبل أيد أمينة ونظيفة، ولها من الكفاءة العلمية والمنهجية ما يسمح لها بخوض التجربة من غير خوف من نتائجها ومحصلتها، فلا ينبغي الاكتفاء بالاستئناف والبحث في طرقه ومناهجه، بل يجب النظر إلى عملية التأسيس على أنها أهم وسيلة لتحقيق الفهم المعاصر لكتاب الله تعالى، وعلينا السير معاً، وعلينا الإشتغال بهما على حد سواء كالطائر لا يطير إلا بجناحين اثنين. ويجب على تيار الاستئناف أن يبني مشروعه في التجديد بعيداً عن رد الفعل العشوائي، بل لابد أن تكون خطواته مدروسة، ومحددة مسبقاً، لها أهدافها وغاياتها، وعليه أن ينظر إلى نفسه نظرة واقعية موضوعية لا ظنية ادعائية فكم من مدع للتجديد ولم يجدد شيئاً، وعليه البحث عن مساحات جديدة للتجديد ما أمكن، كما يجب طرح الأسئلة باستمرار من غير توقف لأن السؤال باب المعرفة، ويجب الانفتاح على العلوم العصرية التي هي من قبيل المشترك الإنساني، كالميتودولوجيا التي تصف العلوم، والابستمولوجيا التي تنقدها، وإدخال شيء من الإحصاءات التي تستعمل في العلوم الإنسانية والاجتماعية يزيد الدقة والموضوعية في الدراسات الشرعية ومنها التفسير، ويفتح طرقاً جديدة في طرحها وتناولها، وهذا طريق اكتمال التجديد في هذا الحقل المعرفي.

وأما الاستنساخ فليس بتجديد (استئناف) ولا جديد (تأسيس)، ونقل تجارب الحضارات من غير دراسة لأوجه التشابه والاختلاف بينها، ومن غير إجراء فحوصات علمية لامكانية التعميم العلمي لا يمت للبحث العلمي بصلة، ونوصي بإجراء بحوث مشتركة مع الباحثين في التخصصات التربوية والنفسية والفلسفية... لتوسيع مساحة البحث في النص القرآني، وتأسيس علوم قرآنية جديدة، لأنه كتاب يزخر بالعلوم ولا يحيط به أحد مهما أوتي من علم وفهم.

13. قائمة المراجع:

- إبراهيم السكران. (2022). *التأويل الجدائي للتراث- التقنيات والاستمداد*. الدار البيضاء: دار نجيبويه المعرفية.
- إبراهيم بنيحي، مسالك التعقيد للتفسير محاولة تأصيلية. مركز تفسير للدراسات القرآنية، tafsir.net.
- الجيلاني مفتاح. (2002). *الحدائثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم*. سورية: دار النهضة.

- الطاهر ابن عاشور. (1984). *التحرير والتنوير*. تونس: الدار التونسية للنشر.
- جمال الدين عاشوري، و فريد لخنش. (2020). *الابستمولوجيا وخطاب التكاملية المنهجية*. مجلة سوسيولوجيا الجزائر، 215.
- طه عبد الرحمان. *تجديد المنهج في تقويم التراث*. الدار البيضاء، بيروت: المركز الثقافي العربي.
- عبد الرحمان المشد. (2021). *الطريقة الشائعة في دراسة مناهج المفسرين*. مركز تفسير للدراسات القرآنية tafsir.net.
- عبد الرحمان حللي. (2021). *الدراسات القرآنية المعاصرة في العالم العربي والدراسات الغربية*. مركز تفسير للدراسات tafsir.net.
- عبد الستار فتح الله سعيد. (1991). *مدخل إلى التفسير الموضوعي*. مصر: دار التوزيع والنشر الإسلامية.
- فريد الأنصاري. (2013). *أبجديات البحث في العلوم الشرعية محاولة في التأصيل المنهجي*. مصر: دار السلام.
- محمد الغزالي. *كيف نتعامل مع القرآن*. عناية: دار الرجاء.
- محمد حسين الذهبي. *التفسير والمفسرون*. القاهرة: وهبة.
- محمد رجب البيومي. (1995). *النهضة الإسلامية في سر أعلامها المعاصرين*. دمشق، بيروت: دار القلم، الدار الشامية.
- محمد رشيد رضا. (2002). *تفسير المنار*. مصر: المنار.
- محمد صالح محمد سليمان، خليل محمود اليماني، و محمود محمد السيد. (2019). *التأليف المعاصرة في قواعد التفسير دراسة نقدية لمنهجية الحكم بالقاعدة*. الرياض: مركز تفسير للدراسات القرآنية tafsir.net.
- هيثم الحمري. (2019). *المناظرات العقدية لشيخ الاسلام ابن تيمية*. جدة: دار النصيحة.